عندما يجيء الموتى في ايلول

بقلم : رياض ابوعواد

(المشـــهد الابتدائي)

ــ الوحدات .. البقعه .. جرش .. كل مناطق الذبح .. تمتلىء هذه الساحات الشاسعة بالمقابر .

ــ المقابر تتململ .. تهتز .. شيء ما .. يثور في داخل القبور ..

ــ انفجار يهز .. يقتلع المناطق الشاسعة .. تتفجر القبور .. القبور الفردية .. والقبور الجماعية ..

ــ لقد أصبحت هذه القبور أضيق من أن تتسع لعظمة التجربة .. هذه المقابر !!

ــ الجثث تنهض .. بدأت تنهض .. وفي نهوضها تعبير القوة .. والرفض .. واشياء تريد قولها .

فهذا أيلول التاسع .. والمجزرة تجري بسرعة مجنونة .. هذي القبور لن تصمد امام ما في صدور الجثث من كره للظلام .

لقد كانت هذه الجثث قبل تسع من سنين .. قادرة على الحب .. قادرة عـلى الكره .. تستطيع ان تسير .. فلها أرجل .. ولها عيون وأقسم بان هياكلها العظمية كانت مجللة باللحم .. لهذا فهي تحاكم بتجرد رهيب .

ــ هذا النهوض يروي حكاية .. رأوها .. عاشوهـــا .. فاتوها .. ولكنهـــم يحيون ليرووا الحكاية . فاي طاغيـــة يستطيع أن يمنعهم .. فليقتلهم مرة اخرى ان استطاع . فعالم الموتى مليء بالديمقراطية حتى العظم (انهم خارج القمع العربي .. فهم اكبر منه وأقوى) الاشياء لديهم متساوية .. العظم يساوي العظم .. واللحـــم المفقود يساوي اللحم المفقود .. اما التمايز الوحيد فيما بينهم فهو : عدد الرصاصات التي اخترقتهم .. أو عدد الاعضاء التي فقدتها تلك الجثث .. وكيفية اختلاط اللحـــم بالعظم تحت جنازير الدبابات الامريكية الصنع .. أو .. أو .. مع تمـــايز كبير في حالة واحده .. هو ان جثث القبور الجماعية كانت تحتقر وبشكل رهيب جثث القبـــور الفردية .. دعونا لا نستبق الاحداث فلكل جثة روايـــة .. ولـــكل جثة تجربـــة .. ولا تنسوا .. ان اصابع الاطفال المقطوعـــة كانت تجيء بين الجثث يتيمة وحزينـــة لوحدتها .. فهي اجزاء منه من أجساد ما زالت تنبض بالحياة .. ونحن للاصابع .. التي .. دعونا لا نستبق الاحداث .. فهذه الاصابع ما زالت تصرخ بسؤال ..

ــ لماذا فصلت .. لماذا قطعت ؟

كان هذا السؤال الرهيب .. هو الصاعد .. هو العبرة .. التي فجرت المقابر وجعلت الجثث تثور .. فيجب علينا ان نروي روايتها .. فهـــي تحنـــو على الطفولة .. وعلى هذه الاصابع اليتيمة المقطوعة .. أصابع الاطفال .

(المشهد الاول في لوحه الحكايه)

نهض هيكل عظمي من قبر فردي .. وتقدم . كان مرفوع القامة .. يمشي بطريقة عسكرية درب عليها في دورة أخيرة .. يحمل عدة أوسمة على صدره .. انها الطلقات التي اخترقت هذا العظم الابيض .. وزرع اكليل غار في الشرخ الذي يشق جمجمته من اثر شظية حمقاء .. كان يسير بثقة أمام جموع الجثث .. فهو يختلف عن ســـكان القبور الفردية لقد كان متمردا .. ومات متمـــــردا .. فهو لا يؤمن الا بنفســـه دون الآخرين .. استعرض أوسمته قليلا .. وبدا يروي بهدوء غاضب حكايته ..

ــ كان طفلا عندما نفي والداه من الحديدة .. وماتت والدته وهم يسيرون في كرم الزيتون الاخير التابع لهذه القرية الواقعة بقرب عكا التي هزمت نابليون .

ــ دفنت أمه .. وسار أبوه به .. محرومين من الانغراس في جسد والدته هناك في الحديدة .. كان فلاحا .. وهو الان عاطل عن العمل في مخيم .. ملـــيء بالصمت والموتى .. ومن يحاول النهوض .. ينام في السجن .. فقام .. ونام في السجن .. وعندما ترنحت والدته في الهزيمة الثانية .. كان لا بد من السير باتجاه الحديدة .. فهي لا تأتي فليذهب هو اليها .. ولينغرس فيها ..

الجثة تصمت .. تذهل .. تبكي .. تذهل .. القرية .. اكتشفت الجثة فجأة ان القرية .. ترسم خارطة الوطن .

تابعت الجثة الحكـــاية : ــ

الهزيمة الثانية اطلقت البندقية .. فخاف الاسياد .. فعندما احمل بندقيتي اهزم مخططاتهم .. خافوا أن يحمل البسطاء البنادق .. لم أفهم هذا .. فسارعوا بقتلي .. ولكني اقتربت من قريتي (الحديدة) خطوة .. من الانغراس في جسد والدتي خطوة اقتربت .

صمتت الجثة .. وهي تتطلع بحقد .. باتجاه الجثة الثانية المتقدمة .. صمتت .. فهي ترى الجبناء يقتربون .. هؤلاء .. ساهموا في قتله ومنعـــوه من الانغراس هناك يجب أن تعري هذه الجثة المتقدمة .. فلا يحق الصمت بعد الان ..

ــ الجميع قام من الظلام لتقال الاشياء مجردة .. فالصدور تنفجر ولن يحق لاحد الصمت في هذه القرية ..

كبرت أصابع الاطفال .. صارت أطول .. حاذت بطولها عظام الفخذ لرجل بالغ.

(المشـــهد الثاني)

.. تقدمت الجثة الثانية غاضة بصرها من قبرمردي .. ورائحة عفن تلفها .. تقدمت بجبن وترهل بالضبط كما وصفتها الجثة الاولى .. رأسها بين كتفيها .. لا ترفع محجريها عن الارض .. ووضع عدائي من الجميع يلفها .. كانت الجثث تشير باصابع الاتهام .. وأصابع الاطفال كذلك تتهم ..

ــ ألست القائل بان الاغنياء .. حلفاء لنا .

ــ ألست أنت الذي جعل من المناضل فدائيا .. أي جعلته الكبش الذي يفتدي الجماهير وأعطيته بعدا انتحاريا .. فابتعد عن الجماهير .. والجماهير ابتعدت عنه.

ــ ألست الذي قلب موازين الطبيعة .. فسلمت المواقع واحدا وراء الاخر .. وقلبت قانون الثورة فبدلا من الهجوم .. أصبح القانون هو الدفاع .. ثم الدفاع ..

ــ الم تكن أنت ذلك الحيادي .. الذي ينتقد في الصفحات المكتوبة .. ولم يعرف كيف تنطلق الطلقة ..

ــ ألست ..

ــ ألست ..

ــ اتهام .. اتهام .. ولا طلقة تعبر عن موتك او شظية .. لقد مت كالفئران كما عشت .. لم تجب الجثة بشيء .. فكل شيء واضح .. والتجريد هنا اســـاس الاشياء .. بحيث يظهر الانسان عاريا حتى العظم .. لقد أهانوا ثقـــافته الجامعية وغناه .. ولم يستطع أن يقول شيئا .. فهذه المساواة ترهقه .. ذهبت اموال النفط والسلطة وها هو يحاكم من قبل البسطاء ..

ارتد عن التجريد وصرخ (لم لم تحاكموني حيا .. لماذا تحاكمونني ميتا وانتم أموات ؟)

هدرت الجثث .

لان امتدادك ما زال حيا .. اموال النفط .. ماتزال حية .. يلعب معي نفس

اللعبة ونحن نحذر الاحياء من البسطاء .. منكم .. ولهذا نحاكم) .

ــ (طالت اصابع الاطفال .. صارت بطول قامة رجل مكتمل الرجولة) .

(المشهد الثالث)

الجثة الثالثة :

تشق صفوف جثث تنام في قبر مشترك .. تتقدم .. ومع كل خطوة يمتد جسدها .. يملأ ساحة الاردن .. يمتد .. يخترق الاردن الى فلسطين .. خطوات جـــديدة يمتد جسدها .. يتشكل الوطن العربي بتضاريسه المشوهة بآثار جنازير الدبابات التي مزقت جسدها .. هذه الجثة جثة امرأة .. واتساع الحوض يدل على هذا .. وهذا الامتداد يدل على أية خصوبة شيطانية يحمل هذا الجسد .. الذي تحمل كل تنبة من ثنايه بذرة زيتونة .. تتحول الى الاف .. ملايين البذور .. وتشع بالرفض .. لكل همجيات ومسرحيات الاقزام ..

ــ بدأت تتكلم بحقد أم فقدت طفلها .. وتنتصب بشموخ الجبال .. والغضب يقدح من محجريها .

ــ انطلقت الكلمات من عينيها رصاصا .. فهي لا تنطق .. نظراتها تقول ما اريد والبسطاء يفهمون ..

ــ الجثث مذهولة .. صامتة .. فهذا الرفض الرهيب في عينيها .. يعلمهم .. ويمتد للاحيـــاء .

ــ علمهم رفض المؤتمرات (قمـــة مسح المجزرة قبل تسع سنين ، قمـــة مسح جريمة الزعتر قمة كامب ديفيد وما أكثر القمم النتنة) .

ــ علمهم .. ان موت بذرة في جسدها .. ينبت بدلا منه الاف البذور ..

ــ علمهم هذا الرفض كيف ينفجرون .. ويفجرون القبور .. ليجدوا في الشوارع بين الاحياء ويصرخوا بالتجربة .

تطلعت الجثة فيهم .. وهي تشتعل نيرانا مثل نيران المجوس لا تخمد .. وهتفت :

ــ لا بد أن تكون المدن اما للفقراء .. واما للقصر .. فهل تفهمون ؟؟

(دق الرعب في القصر .. فاصابع الاطفال أصبحت اطول من الجبال .. وحوض المراة .. جسدهـــا .. يكتسي لحما .. وهي تشمـــخ بقامتها .. والرصاص ينهمر من عينيها) .

(المشهد الرابـــع)

الجثة الرابعة : ... لم تكن جثـــة اطلاقا .. كانت ماضيا مقدسا معطرا بدم الثوريين جاءت من قبر جماعي .

ــ تضاءل أيلول أمام هذه القامة القادمة باكثر من صلابة الشباب .. واكثر من حكمة الشيوخ ..

ــ الجمجمة المتسعة .. ترتسم عليها تكشيرة حادة .. كسكين حادة لا تعرف الحد الوسط .. بحيث اعطت انطباعا من صعوبة معرفة شخصيته .. ولكنه .. ولكنه قريب للقلب ويمكن فهمه .. فهو يبدو اكبر من الموت .. واكبر من الحياة .. أكبر من الماضي والحاضر .. كأنه المستقبل وكأنه الخلود ..

ــ كان في خطواته بين الجثث يرفض أن تبقى المقابر مجرد مقابر .. وبشموخه كان يرفض أن يبقى البسطاء فقط من أجل ان يدفنوا ، البسطاء الذين كسروا الخوف وجابهوا الطاغية .

صلابته كانت تعلم البسطاء والفقراء ان لهم دورا يجب ان يقوموا به .. شيئا يجب أن يبنوه .. ومن جراحاته النازفة كالرايات الحمراء رسم طريق الفقراء .. فهو متأكد بانه .. .. .. سيأتي ..

(ترتفع قامته .. يتدفق بحيويـــة .. المراة تكتسي لحما .. تمتلىء بالخصوبة اصابع الاطفال تمتد معها) .

(مشهد ختامي)

ــ نظر الى الجثث .. الى المراة عانقها .. اهتز جسدها .. انتفض فقراء الوطن .. ارتعب التاج .. ونجمة داود .. اشتعل النفط .

ــ بدأت رقصة الحياة .. بدأت الجثث تكتسي لحما ..

ــ أنين ينطلق من شفتيها .. عانقت رجلها .. ازداد شموخا هذا الرجل ..

ــ أصابع الاطفال اصبحت أطول اضخم .. اصبحت تطارد الفانتوم .

ــ الرجل يحلم .. والمرأة تحلم .

باصابع الاطفال والنزيف الدموي الذي يجري من جراحاتها .. يصبح سيلا .. يحمل الطغاة .. والنجمة السداسية .. وكل العملات الغريبة .. يلقيها في الماضي .. ويطهر جسد المرأة ..

ــ المرأة تحمل .. تتضخم .

ــ الرجل يبتسم واثقا من المستقبل .

ــ المرأة تتضخم .

الوليد .. قادم .. قادم .. والتجربة تدق الابواب .. يرتد ايلول .. لتكون مجزرة القمة .. وليصبح البسطاء هم القمة .. الوليد قادم .. قادم .. والرفض يشق طريق الثائرين .. والخارطة تتلون بالاحمر ..

■